الفصل السابع

أخلاقيات الزواج

الفصل السابع

أخلاقيات الزواج

أولاً: رسل من الأخلاق النظرية إلى التطبيقية

يتناول هذا الفصل الحياة الأخلاقية على أرض الواقع الذى صوره رسل من خلال كتاباته عن «الزواج والأخلاق» و«إنتصار السعادة»، فهو يدور حول الحياة الأخلاقية - كما ينبغى على المرء أن يحياها - من وجهة نظر رسل، لذا يختلف هذا الفصل عن الفصول الثلاثة السابقة، من حيث كونه يعالج موضوعًا واقعيًا معيشًا على أرض الواقع، فإن كانت الفصول الثلاثة السابقة تدور حول نظريات وتصورات أخلاقية قائمة على منطق النقد الأخلاقى، ومنهج التحليل الفلسفى، وبصفة خاصة كما تم عرضه وتحليله فى النظرية الحدسية، أو الانفعالية الأخلاقية، فالسمة الغالبة فى هذه النظريات هى كونها نظريات بحتة، تتعامل مع تحليلات وتصورات أخلاقية، لذلك يمكن وضعها تحت مسمى «المدرسة اللغوية فى الأخلاق» أو بالأحرى «فلسفة الأخلاق».

أما الدراسة فى هذا الفصل فتهتم بالواقع التطبيقى إلى أقصى حد، ولذلك نجد رسل يبنى رؤيته الأخلاقية فى الزواج من خلال التجربة الحياتية المعيشة؛ لذا كان محور الفصل يدور حول مشكلات فلسفية، يحاول فيها رسل إيجاد حلول لهذه الإشكاليات الواقعية، ولكن اختلفت هذه الحلول عن فلسفته برمتها، والدليل على ذلك أن رسل كان يأمل أن تلقى رؤيته فى الزواج رواجًا وقبولاً عند كافة البشر، حتى تصبح نظرية عامة، ولكن لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تقنع رؤية شخصية لمشكلة ما مجتمع بأسره فى القرن العشرين.

وفى هذا الصدد يأسف رسل لنفسه فى نظريته عن الزواج، لأنه لم يجد أية مؤسسات علمية أو جامعية يمكن أن تأخذ نظريته فى أخلاقيات الجنس والزواج مأخذ الجدية والاهتمام، بل

عـلى العكس رُفضت من قبل الكثيرين وعلى رأسـهم «آلان وود». أو كما قال «جريلينج» أن بعضًا من كتابات برتراند رسل كانت بمثابة نجاحًا كبيرًا فى مضمار المنطق وفلسفة العلوم مثل «أ.ب. النسـبية»، «أ.ب. الذرة»، «فى التعليم»، «ما المنضدة»، «الزواج والأخلاق»، ثم أخيرًا «غـزو السـعادة»، وبعض كتاباته كانـت بمثابة فضيحة له حيث إحتـوت فى داخلها عن آراء صريحة جدًا فى الأخلاق الجنسية[1].

ولا شك أن موضوع الجنس الذى يحاول رسل معالجته يعد من الموضوعات المهمة على الساحة الأخلاقية، إذ بدأ الاهتمام فى الأونة الأخيرة بما يسمى بـ«أخلاقيات الجنس»، وذلك بعد ظهور نظريـات التحليل النفسى، خاصة عندما حلل «فرويـد» أثـر الجنس «اللبيدو»[*] فى تكوين العقد النفسية، فبدأت الدراسات النفسية والتربوية تهتم بدراسة تأثير الجنس وأخلاقياته على الفرد سـواء من الناحية السـيكولوجية أو من الناحية الفسـيولوجية، كذلك تأثيره فى تكوين وتحديد ملامح الشـخصية والاتجاهات والميول، الأمر الذى جعل دراسة الجنس وآثاره تشكل موضوعًـا علميًا قائمًا بذاته، ولكن بالرغم من ذلك ما زال الجنس وأخلاقياته موضوعًا مفروضًا على كل فيلسوف أخلاقى[2].

وعندمـا يحلـل رسـل موضوع الجنـس وأثـره فى الحيـاة الأخلاقيـة، ينطلـق من الدراسـات الأنثروبولوجيـة والتربويـة إلى غير ذلك من العلوم التى تخدم المجتمع الإنسـانى، وتحاول أن تقف

(1) A. C. Grayling: Russell, A Very Short Introduction, Op. cit, p.20.

(*) اللبيدو Libido: مصطلح تحليلى نفسى يعبر عن مصاحبة الطاقة أولاً مع غرائز الحياة، ثم مصاحبة الطاقة مع الغرائز الجنسية. وقد افترض فرويد هذه الطاقة كأساس لتحولات النزوة الجنسية من حيث الموضوع ومن حيث الهدف كالتسامى مثلاً، ومن حيث مصدر الإثارة الجنسية. كما يعنى «اللبيدو» فى اللاتينية الشهوة أو الرغبة، ومن الصعب تقديم تعريف «للبيدو» يحوز الرضا تمامًا حيث لا يقتصر الأمر على تطور نظرية اللبيدو مع مختلف مراحل نظرية النزوات. كما يطلق تعبير «اللبيدو» على تلك النزوات ذات الصلة بكل ما يمكن أن يدخل تحت اسم الحب.

Lawrence A. pervin, Oliver P. John: Personality - theory and Research, John Wiley& sons, Inc, U.s.A, 2007, p.593.

وانظـر أيضًا - جان لابلانش وج. ب. بونتاليس: معجم مصطلحات التحليل النفسى، ترجمة: مصطفى حجازى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1997م، ص ص 428، 429.

(3) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص221.

على حقيقة الموقف الإنسانى، ولكن يضفى رسل هنا نزعته العلمية على أخلاقيات الجنس، فهو يحاول تأسيسه كنظرية علمية مثل الرياضيات والمنطق وفلسفات العلم والعقل وغيرها، فهو يرى أنه إذا كان من الواجب على الإنسان أن يتعلم العلوم الرياضية مثلاً، فعليه أن يقوم بدراسة الجنس وأخلاقياته دراسة مستفيضة، فالجهل بالجنس كما يقول رسل فى ثنايا البحث، من الأمور الخطيرة، لذا نصح رسل بضرورة أن يهتم الآباء والآمهات بتعليم صغارهم حقيقة الجنس وأخلاقياته.

ويحاول رسل فى بحثه أن يجد حلولاً للمشكلات المتعلقة بالجنس، مثل المشكلة الدينية، ومشكلة الحب، ولكن فى تحليلاته يقع تحت وهم «اللاأدرية» فى الدين، فيحاول أن يستبعد الدين من أخلاقيات الجنس، لكونه كما يقول رسل: «بأنه يبعث على الخوف»، بل أنه من معوقات السعادة فى الزواج، ففى كتابه «لماذا لست مسيحيًا» نراه يطرح الدين جانبًا، إذا أراد الإنسان فى نظره أن يتحلى بالسعادة فى زواجه، وهذا الموقف الذى يتبناه رسل فى استبعاده للدين من فلسفته الاجتماعية، يتشابه مع الموقف الذى اتخذه الفيلسوف الألمانى «نيتشه» عندما رأى أن المسيحية هى العدو الأكبر للحياة، والداعية إلى أخلاق العبيد، وتأكيد مشاعر الخطيئة، وعقدة الإحساس بالذنب[1].

وبعد ذلك يبدأ رسل فى تحليل أخلاقيات السعادة، ويحاول أن يجد السبل التى تجعل الإنسان سعيدًا فى حياته، بل يبحث بالأحرى عن السبل التى من أجلها يحقق الإنسان الحياة الكريمة Good life، فيناقش فى - محاورة رائعة - الحالة التى آلت إليها حالته الشخصية، من حيث كونه سعيدًا أم تعيسًا، ثم يتطرق الباحث هنا لدراسة المعوقات التى تعوق عملية السعادة، فيراها كثيرة عند رسل، منها الحقد والضجر والحسد والألم والمرض وغيرها من الأشياء التى تجعل الإنسان يشعر بالكآبة والتعاسة.

وينطلق رسل فى تحليله لأخلاقيات السعادة من مبدأ أن السعادة هى الخير، فكما قالت الرواقية قديمًا «أن حب شىء ما يعنى الحكم بأنه خير، وينبغى طلبه، وكره شىء ما يعنى الحكم بأنه شر، ويجب البعد عنه»[2]، أو كما جاء عن أفلوطين «أن الإرادة الإنسانية تريد الخير وحده...

(1) حسن حماد: بحثًا عن المعنى والسعادة واليوتوبيا، مكتبة دار الكلمة، القاهرة، الطبعة الثانية، 2007م، ص113.
(2) جيهان عادل على: مفهوم السعادة فى فلسفة سينكا، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2011م، ص67.

فإرادة الخير هى فعلنا المباشر»[1]. فرسل يبدأ من هذه الأفكار القديمة فى كون الإنسان يسعى فى حياته إلى الأمور الخيرة التى تسبب له الراحة والطمأنينة، مثل الصحة والحب والعمل الشيق، وبالتالى يبعد الإنسان عن الأمور التى تكدر صفو حياته مثل الحسد والحقد والألم وغيره.

وعلى أساس هذه التوطئة التى تدور حول الصياغة الواقعية، والأخلاق التطبيقية لتصور أخلاقيات الجنس وسبل السعادة، تكونت عدة إشكاليات حول الصياغة الواقعية لفلسفة الأخلاق - كما تصورها رسل- فى كتابه الزواج والأخلاق، فكانت الرؤية المقدمة هنا ما هى إلا صياغة لوجهة نظر برتراند رسل فقط، وهى بالفعل رؤية تخالف جميع الأديان السماوية، وأهم هذه الإشكاليات:

1. إلى أى حد فهم رسل الزواج فى كتابه «الزواج والأخلاق»؟ وهل يمكن القول بأن ما قاله رسل يعد نظريةً عامةً فى الأخلاق؟ أم ما قاله لا يمثل سوى رؤيته الخاصة تجاه مشكلاته الحياتية؟

2. إلى أى حد بلوّر رسل رؤيته تجاه الدين؟ ولماذا رآه من معوقات السعادة فى الزواج الناجح؟

3. ما الحب؟ وما هو الحب العذرى؟ و إلى أى حد كانت هناك علاقة بين الحب والجنس بشكل عام؟ وهل يمكن قبول نظرية رسل فى الحب وتطبيقها على أرض الواقع؟ أم ما قاله بصدد الحب والجنس عبارة عن خيال لن يصل إلى أرض الحقيقة؟

ثانيا: الزواج(*) والمشكلة الأخلاقية.

ما هى نظرية رسل فى الزواج؟؟ وما علاقة نظريته فى الزواج بكل من الأخلاق بصفة خاصة، ومشكلة الحياة بصفة عامة؟؟ و إذا كانت هناك مبرراتٌ لقبول آرائه عن الزواج

(1) أسماء عبد الله محمد حمدون: الخير والشر فى فلسفة أفلوطين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 2011م، ص119.

(*) الزواج Marriage: هو الاقتران الشرعى بين الرجل والمرأة لتكوين أسرة جديدة، وتختلف شروط عقده، وفسخه، والحقوق والواجبات المترتبة عليه باختلاف الجماعات. فإما أن يكون للرجل الواحد إمرأة واحدة كما فى نظام الزواج الموحد (monogamie)، أو عدة نساء كما فى نظام تعدد الزوجات (pologamie)، =

والجنس، فإلى أى حد يمكن القول بأن آرائه تتماشى مع الأديان أو الأخلاق بوصفها المرشد للسلوك الإنسانى؟

تلك هى الإشكالية الرئيسية فى الموضوع برمته، والتى يحاول الباحث أن يكشف النقاب عنها، و إن كانت الإجابات التى سيقدمها البحث قد تخلو من العمق واليقين فى هذا الموضوع، وذلك لأن معالجة موضوعات الزواج والأخلاق تحتاج إلى العديد من الدراسات والتحليلات الفلسفية والنفسية.

فى البدء يحاول رسل أن يقدم تعريفًا واضحًا بعض الشىء عما تعنيه كلمة «الزواج» Marriage، فيرى: «أن الزواج عبارة عن علاقة قائمة بين الرجال والنساء، وهو يختلف بالطبع عن باقى العلاقات الجنسية الأخرى من خلال حقيقته، حيث أنه يؤسس على شرعية قانونية A Legal Institution، كما يكتسب فى بعض المجتمعات الشرعية الدينية A Religious Institution، وبالتالى يعد الزواج فى الحالتين صورةً لكل من الشرعية والقانونية التى تعد ضرورية فى بناء الأسرة»[1]. مع التأكيد أن رسل هنا أخرج «الأطفال» من تعريفه لمعنى الكلمة[2]، ليناقشها كمفهوم فلسفى أخلاقى.

يحاول رسل من خلال تعريفه للزواج التأكيد على شرعيته القانونية أولاً، ثم شرعيته الدينية (يراها رسل فى بعض المجتمعات)، ومن ثم يبحث عن السبل التى تؤدى بالزواج إلى السعادة فى الحياة الاجتماعية والأخلاقية، لذلك كانت هناك بعض المؤثرات التى تؤثر

= و إما أن يكون للمرأة الواحدة عدة رجال كما فى نظام تعدد الأزواج. وقد يتحتم على الرجل أن يختار زوجته من عشيرته وأهله كما فى نظام الزواج الداخلى، أو يتحتم عليه اختيارها من خارج عشيرته كما فى نظام الزواج الخارجى الشائع فى نظام «الطوطمية» وقد يبنى الزواج على العاطفة فيكون نتيجة حب متبادل بين الرجل والمرأة، أو يبنى على العقل فيكون نتيجة تفكير كل واحد من الزوجين فى مصلحته، ولكن الزواج الكامل يبنى على العاطفة والعقل معًا، لأنه إذا خلا من الحب أو من الشروط المادية والاجتماعية التى تصونه لم ينشىء أسرة سعيدة. فليس الزواج وسيلة لإشباع الغريزة الجنسية، و إنما هو عقد اجتماعى لتكوين أسرة يشعر فيها كل من الرجل والمرأة بالطمأنينة الروحية، من هنا كان واجبًا على الرجل أن يحب زوجته كما يحب نفسه، حتى يصبح الاثنان شخصًا واحدًا.

انظر- جميل صليبا: المعجم الفلسفى، الجزء الأول، مرجع سابق، ص ص 641 - 642.

(1) B. Russell: Marriage and Morals, Unwin Books, London, 1970, p.68.

(2) Ibid: p.68.

فى العلاقـات الزوجية بين الرجال والنسـاء، والتى قد تجعـل الزواج يمضى قدمًا أو يهوى إلى الخلف.

يبدأ رسـل بتحليل تأثير العامل الاقتصادى عـلى الزواج، فيرى أن للعامل الإقتصادى The Economic Motive دورًا مهمًا فى التأثير على السلوك الجنسى Sexual Behaviour فى المجتمعات البدائيـة القديمـة، وبخاصـةٍ فى المجتمعات الرعويـة والزراعية، فقد كانت كـثرة الزوجات والأطفال تمثل قيمة اقتصادية كبرى للرجال، لأنهم كانوا يعملون فى الحقول والمزارع من أجل إرضاء أزواجهم. أما الأطفال فقد كانت لهم فائدة اقتصادية كبيرة، وبخاصة بعد سن الخامسة أو السادسة فى العمل بالحقول والمزارع، بل وفى رعى الحيوانات، لذلك كان أقوى الرجال نفوذًا هو من يمتلك أكبر عددٍ ممكن من الزوجات[1].

أما عن الوظيفة الأساسية للزوجة فى المجتمعات البدائية فوظيفتها تشبه وظيفة الحيوانات الأليفة، أما وظيفتها فى الحياة الجنسية فهى وظيفة ثانوية تقل من حيث الدور الاقتصادى، وعلى هذا المسـتوى من التحضر آنذاك كان يحق للرجل أن يطلـق زوجته divorce his wife، وذلك على الرغم من أنه يجب فى هذه الحالة أن تسـتعيد الزوجة لعائلتها أية نفقات واجبة (تسمى فى الوقت الحاضر نفقة الزوجة)، بينما ليس للزوجة الحق فى هذه الحالة أن تطلق زوجها[2].

ومع التطور الحضارى فى بعض المجتمعات بدأت تظهر قيود تجاه الزنا، بعد أن كان مباحًا فى فترات سـابقة، تشبه قيود الزواج، فبدأت تظهر العقوبات القاسية تجاه المرأة الزانية، وكان يحكـم عليهـا بالموت، بينما الرجل لا يعتـبر مجرمًا إذا مارس الجنس مع فتـاة غير متزوجة. لقد جعل العامل الاقتصادى حياة المرأة فى المجتمعات الزراعية شاقة، فكانت تشيخ وتهرم فى سن الخامسة والعشرين، وبالتالى تفقد سماتها الجمالية، فكان ينظر إليها بوصفها حيوان أليف[3].

إن الدور الاقتصادى الذى يشير إليه رسل هنا قد قلل من شأن المرأة فى المجتمعات البدائية، وهذا يذكرنا بحضارة اليونان القديمة التى جعلت المرأة أيضًا تقع تحت القهر الاجتماعى، ففى الفلسـفة اليونانية نجد نماذجًا من عمالقة الفكر اليونانى، سقراط وأفلاطون وأرسطو، يقولون

(1) Ibid: pp.68,69.

(2) Ibid: p.69.

(3) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص 253.

بأفكار سيئة عن المرأة مسايرة لشعور الكراهية للمرأة السائد فى مجتمعهم، فكانت المرأة عند سقراط التى هى الزوجة مصدر النكد، أو أنها شر لابد منه[1].

وقد رآها «إكسينوفون» المؤرخ اليونانى فى مؤلفه «الاقتصادى» «أن المرأة نشأت لكى تسمع وترى وتسأل بأقل قدر ممكن»[2]. والسبب فى ذلك كان القهر الاجتماعى الذى وقع على طبقات كبيرة من المجتمع عبر العصور قد وقع أكثره على النساء، فبلاد اليونان التى عرفت حضارة من أرقى حضارات التاريخ وأبدعت فى الفكر والفن والآداب روائعًا خالدًة، لم تلبث أن ذوت بفعل المشكلات الاجتماعية والسياسية التى تفاقمت عن المجتمع العبودى وتدهور فيها حال المرأة، ووصل إلى مستوى سيء للغاية. وظهرت عبقريات الفلاسفة الكبار أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، فقد قامت هذه العبقريات على عبودية آلاف العبيد وعبودية النساء كافة[3].

من خلال ما سبق يمكن القول أن تأكيد رسل على المجتمعات البدائية القديمة، وأثر العوامل الاقتصادية من زراعة ورعى وغيره على طبيعة المرأة فى الحياة، وعلى طبيعتها بوصفها زوجة كان مُسْتمدًا من الفلسفة اليونانية التى حقرت من وضع المرأة بوجه عام، وبالتالى كان تشبيه رسل للمرأة بالحيوان الأليف فى المجتمع البدائى ما هو إلا قراءة ثانية للفلسفة اليونانية.

ويأتى بعد ذلك العامل الدينى الذى يتمثل فى الكنيسة، فيرى رسل: «أن الرجل الذى يمارس العلاقة الجنسية مع زوجة رجل آخر يعد مجرمًا، بينما لا يلام هذا الرجل إذا كانت لديه علاقة جنسية مع امرأة غير متزوجة، ولكن مع ظهور المسيحية تغيرت هذه النظرة، حيث أن الزواج فى الديانة المسيحية قد تم معالجته بدرجة كبيرة، فالشخص الذى ينتهك حقوق الزوجية يلام على أساس من هذه الشرائع، فقد اعتبرت الأخلاق المسيحية ممارسة الجنس مع زوجة رجل آخر إعتداءً على حرمة هذا الرجل، أما ممارسته خارج إطار الزواج أو مع فتاة غير متزوجة، فإنه يعد إعتداءًا على حرمة الله. ويعد هذا الأمر عند الكنيسة من الموضوعات الشديدة الخطورة، بل أمرًا لا يغتفر»[4].

(1) حسين على: ما هى الفلسفة؟، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م، ص265.
(2) أميرة حلمى مطر: مقالات فلسفية حول القيم والحضارة، مكتبة مدبولى، القاهرة، د.ت، ص 26.
(3) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(4) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.69.

وقد حرمت المسيحية الطلاق الذى كان مباحًا للرجل قبل ظهورها، حيث اعتبرت الديانة المسيحية عقد الزواج مقدسًا ولا يمكن للزوجين الانفصال مدى الحياة، فالزواج لابد أن يكون ساريًا ومستمرًا طول العمر[1]. أضف إلى ذلك أن قوانين الزواج فى إنجلترا - كما يقول الفيلسوف محل الدراسة- فى كتابه «نحو عالم أفضل» مبنية على التوقع بأن العدد الأكبر من الزيجات سيدوم مدى الحياة، فلا يمكن فسخ الزواج إلا عندما يثبت أن واحدًا من الزوجين، وليس كلاهما معًا قد زنى، كما لا يمكن حل زواج بسبب الجنون أو الجريمة أو القسوة مهما كانت هذه الأشياء فظيعة، أو لسبب الهجر أو لزنى الطرفين. كما لا يمكن حله لأية علة كانت حتى ولو وافق كل من الرجل والمرأة على ذلك، حيث يعتبر القانون فى كل هذه الحالات الزوج والزوجة مرتبطين معًا مدى الحياة، فيقوم موظف خاص بمحاكم الطلاق يلقب فى إنجلترا بـ» مراقب الملك» أو نائب الملك king`s proctor بمعارضة الطلاق عندما يتواطأ الاثنان على المطالبة بالطلاق أو عندما يكون كل فرد منهما قد زنى[2]. أضف إلى ذلك أن الطلاق فى هذه الحالة لا يمكن عمليًا إلا للأغنياء، لأن نفقات الطلاق باهظة جدا[3].

كما جعلت المسيحية وضع المرأة أسوأ حالٍ عما كانت عليه فى الماضى، وبصفة خاصة عند المجتمعات الأكثر ثراءً the well-to-do classes وذلك على الرغم من أنها قد تساوت مع الرجال فى الحقوق الدينية theologial equality كما رفضت اعتبارها ملكًا للأزواج، حيث لا يحق للمرأة المتزوجة أن تترك زوجها لتذهب إلى رجل آخر، بل يحق لها أن تهجر الحياة الزوجية لتعيش فى الحياة الدينية[4].

إذا كانت الكنيسة قد حرمت الزنا كما يقول رسل فى تحليله لأثر العامل الدينى فى الزواج، فإن رسل هنا يرى أن للكنيسة دورًا مهما فى تعاسة الزواج، فقد فسرها من وجهة نظره الخاصة، وذلك عندما تساءل عن الأسباب التى تعمل على سعادة الزواج، وكذلك الأسباب التى تعمل على تعاسته[5].

---

(1) Ibid, pp.69,70.

(2) برتراند رسل: نحو عالم أفضل، مصدر سابق، ص133.

(3) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(4) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, pp.69,70.

(5) Ibid, p.70.

يتمثل السبب الأول عند رسل فى الكنيسة وتعاليمها- فيراها عائقًا فى سبيل الوصول إلى السعادة فى أمور الزواج، حيث يرى فيلسوفنا: «أن هناك مؤسسةً اجتماعيةً واحدةً تتأثر بالتقليد المسيحى إلى حد هائل، وأقصد بها مؤسسة الزواج، حيث تطغى تعاليم الكنيسة حتى الآن وبدرجة كبيرة على القانون وعلى الرأى العام، إلى حد بعيد، فيما يخص أمور الزواج، ومن خلاله تواصل الكنيسة تأثيرها على حياة الرجال والنساء والأطفال فى كل اهتماماتهم الحياتية، بل فى أخص شئونهم الشخصية»[1].

ويؤكد رسل على ذلك بقوله: «أنه فى المجتمعات المتحضرة، نرى أن الناس يشعرون بالتعاسة وعدم الارتياح، بالإضافة إلى كون أفراده غير قادرين على أن يصنعوا لأنفسهم هذه السعادة المطلوبة، والسبب فى ذلك هو ارتباطهم بشريك واحد طول العمر. فعلى الرغم من تعدد الأذواق والغايات نجد أن الزواج يكون ناجحًا بين الأفراد الأقل تنوعًا واختلافًا، فالأذواق المتنوعة والاهتمامات المتعددة تجعل أفراد المجتمع الواحد يشعرون بعدم الرضا عندما يجدون أنفسهم مع شريك واحد طول العمر، والسبب فى ذلك يكمن فى النظرة الكنسية التى تنظر للزواج من زاوية واحدة فقط، ألا وهى الجنس. ولا ترى الكنيسة أيَّة أسباب فى أن يقوم أحد الزوجين بفض زواجه عن الآخر، حيث تتمسك الكنيسة بالزواج وتجعل عقده غير قابلٍ للانفصال مدى الحياة، دون أن تنظر إلى مدى الصعوبة التى يعيشها أفراده[2].

ومن الأسباب التى تعمل على عدم السعادة فى الزواج- الحضارة Civilization، فإذا كان كل من الرجل وزوجته من أكثر الناس تحضرًا كانوا من أشقى الناس وأكثرهم تعاسة، ويمكن توضيح ذلك وتفسيره بالتربية الجنسية الخاطئة Bad Sexaul Education، التى تنتشر بين أفراد الطبقة المتحضرة أكثر من انتشارها بين طبقة الفلاحين، حيث يعتاد طفل الفلاح peasant children رؤية حقائق الحياة كاملة، ليس عن طريق الكيانات البشرية فقط، ولكن من خلال الحيوانات المحيطة بهم، وهذا هو الأمر الذى يجنبهم الجهل ويجعلهم على دراية ومعرفة كاملة بالأمور الجنسية من خلال رؤية الحياة الواقعية فى الريف. وعلى النقيض من ذلك نجد

(1) برتراند رسل: نحو عالمٍ أفضل، مصدر سابق، ص134..

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.70.

أن أطفال الأثرياء أو الطبقة المتحضرة على جهل كبير بهذه المعرفة العلمية المتعلقة بالجنس، حتى عند هؤلاء الأباء الأكثر تحضرًا فى نقل المعلومات لأطفالهم من خلال قراءاتهم المتنوعة فى الكتب[1]. أضف إلى ذلك أن الرجل والمرأة الذين تلقوا تعاليم المسيحية يقبلون على الزواج دون خبرة جنسية كافية، مما يؤدى ذلك إلى نتائج غير مرضية[2].

وعندما كان السلوك الجنسى ليس غريزيًا فإن الشباب يعانون من نقص فى الخبرة الجنسية، كما تكون الفتاة فاقدة للخبرة الجنسية تمامًا، وربما يكتسب بعض الشباب خبرة جنسية من البغاء، ولكن مثل هذه الخبرة تجعله لا يقدر قيمة المغازلة التى تعد ضرورية لنجاح الزواج. كذلك من الملاحظ أن نساء الطبقة الراقية يعتبرون البرود الجنسى من الفضائل، الأمر الذى يؤدى إلى استحالة استمرار الزواج، والحقيقة أن الفشل فى الحصول على الاستمتاع الجنسى، يؤدى إلى نوع من عدم الإشباع النفسى والفسيولوجى، يشبه عدم الاستمتاع من تناول الطعام، وليس له علاقة بالفضيلة أو بالرذيلة[3].

إن ما سبق عرضه يعد من وجهة نظر الفيلسوف محل الدراسة عبارة عن معوقات فى سبيل الوصول إلى السعادة فى الزواج، حيث يرى أن الكنيسة تؤدى دورًا مهمًا فى جلب التعاسة للزوجين، وذلك بسبب القيود والقوانين التى تفرضها السلطة الكنسية ومنع الطلاق ومنع الاختلاط، وكذلك كانت التربية الجنسية الخاطئة كما يراها رسل أحد أسباب التعاسة أيضًا، فرسل هنا يدعو إلى الحرية فى العلاقات الجنسية وفى تعلم الجنس، فهو يرى أن التعاسة تأتى من عدم الخبرة فى معرفة الجنس، فعلى حد تعبير «آلان وود»(*) يرى أن رسل ينادى بتحبيذ التجارب الجنسية قبل الزواج، حيث كتب فيلسوفنا يقول: «ليس من المرغوب فيه أن يقدم

(1) Ibid, p.71.

(2) Ibid, p.71.

(3) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص 255.

(*) آلان وود: أسترالى المولد، تخرج من جامعة سيدنى، حيث كان والده استاذًا للتاريخ فيها، وبعدها واصل «وود» دراسته فى اكسفورد حيث اهتم بدراسة الفلسفة وكان أول أسترالى يصبح رئيسًا لإتحادها، وبعد فترة من الزمن عاد إلى أكسفورد حيث اهتم بدراسة فلسفة برتراند رسل، إلى جانب علاقته الوثيقة برسل، مما أثمر عن ذلك كتابه «برتراند رسل - سيرة حياة»

انظر - رمسيس عوض: تقديمه للترجمة العربية لكتاب ألان وود: برتراند رسل - سيرة حياة، المشروع القومى للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، العدد 64، 1998م، ص9.

الرجل أو المرأة على عملية الزواج الجادة التى يقصد بها أن تؤدى إلى إنجاب الأطفال بدون أن يكون لهما تجارب جنسية سابقة»[1].

ومن أسباب تعاسة الزواج أيضًا الإحساس بعدم الرضا، ويمكن تفسيره على النحو التالى: أنه عندما تكون هناك مناسبةٌ اجتماعيةٌ، ويتقابل فيها الرجال بالنساء المحترمات من الناحية الأخلاقية، فى هذه الحالة يكون الرجال غير قادرين على إقامة علاقات جنسية مع غير زوجاتهم، وبالتالى يحاولون أن يكونوا فى أفضل الحالات فى هذه اللحظة حتى ينالوا إعجاب النساء، ونفس الشىء أيضًا ينطبق على الزوجات[2].

ومن أسباب فشل الزواج وتعاسته عدم شعور الإنسان بقيمة الحب، فالحبُّ ينمو ويستمر إذا كان متمتعًا بالحرية والتلقائية spontaneous، ويموت الحب إذا اعتبر واجبًا من الواجبات الملزم بها الإنسان، فإذا قيل لك أنه من الواجب أن تحب شخصًا ما، فإن ذلك يؤدى بالضرورة إلى كراهية الشخص الذى طلب منك بأن تحبه، فالزواج هنا عبارة عن رابطة من الحب من خلال الارتباطات الشرعية[3].

مما سبق يتضح أن رسل يدعو إلى فلسفة للزواج مغايرة تمامًا لما قامت عليه الأديان، والأعراف والتقاليد الأخلاقية المتبعة فى ترشيد السلوك الأخلاقى، بل نجد رسل هنا يدعو إلى عملية الإباحية الجنسية من خلال دعوته إلى حرية الجنس ومعرفته، وبالتالى فإن الحرية التى ينادى بها رسل هنا يمكن القول عنها بأنها حريةٌ مزعومةٌ أى أنها حرية لا أخلاقية فى فلسفة الأخلاق، أو أنها فلسفة لا دينية بالمرة، وإن كان من الواجب على الشاب أن يتعرف ويدرك مدى العلاقات الجنسية، ولكن لا يجب أن تتعدى المعرفة فى هذه الحالة إلى التطبيق، كما يجب حجب كل ما يتعلق من باب الفلسفة الأخلاقية عن طبيعة الجنس عن الصبية والأطفال مهما كانت حياتهم ريفية أم متحضرة، وبالتالى كانت هذه الرؤية المقدمة من فيلسوفنا مسار نقد ومناقشة لكل من الكتاب أمثال «آلان وود».

(1) آلان وود: برتراند رسل بين الشك والعاطفة، ترجمة / رمسيس عوض، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، 1984م، ص174.

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, pp.70,71.

(3) Ibid: pp.72,73.

ثالثًا: الجنس والدين

لاشك أن معالجة موضوع الجنس والدين من الموضوعات المهمة فى أخلاقيات الفكر الفلسفى، كما أنه من الموضوعات الشائكة عند الفيلسوف محل الدراسة، حيث تم مهاجمة آرائه بصدد الجنس من حيث كونها تتعارض مع الفكر الدينى، وكذلك الأخلاقيات الاجتماعية، والعرف والعادات والتقاليد الموروثة.

وفى هذا الموقف الفلسفى يعد الدين من أهم أسس الأخلاق، ويعد فى الوقت الحاضر الدين المنظم للسلوك[1]. كما أن الدين فى الأصل هو أخلاق أُشعلت عن طريق المشاعر، فهو عبارة عن استجابة بشرية للإله، أو كما عبر عنه «هربرت سبنسر» الدين هوالاعتراف بأن كل الأشياء هى مظاهر للقوى التى تفوق معرفتنا[2]. فالشعور الدينى هو وجه من الروح الدينية فى الإنسان، وأن الشعور الخلقى هو ملائمة لمقتضيات البيئة، والمنطق الدينى هو الذى يهيمن على الديانة، والمنطق العاطفى هو الذى يهيمن على الأخلاق[3].

فإذا كان الدينُ يعد الركيزة الأولى والأساسية فى بناء الفكر الأخلاقى منذ القدم، فإن موضوع الجنس كان مثار اهتمام الأديان على اختلافها، فإذا كانت الأخلاق الجنسية قبل ظهور الديانة المسيحية مرتبطة إلى حد كبير بالأوضاع المادية، فإن الأخلاق المسيحية أضفت على الأخلاق الجنسية نوعًا من التقديس، ذلك الأمر الذى جعلها تشكل قيودًا للسلوك الإنسانى- فيما يرى رسل- حيث ظل الإنسان ملتزمًا بها، بالرغم من أنها لم تعد مناسبة لظروف العصر الحاضر[4].

لقد بدأ اهتمام الدين بموضوع الجنس، مع بداية اكتشاف الأبوة ودور الرجل فى الإنجاب، ومع اكتشاف صلته بالزواج والأسرة والميراث، حيث يقول رسل: «أنه فى المجتمعات الزراعية

(1) محمد محمد حسين الشامى: الحقيقة فى فكر وليم جيمس، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب فرع بنها، جامعة الزقازيق، 2002م، ص 177.

(2) John Hick: Philosophy of Religion, Prentice Hall, International, Inc, Fourth Edition, 1990, p.2.

(3) محمد محمد حسين الشامى: الحقيقة فى فكر وليم جيمس، مرجع سابق، ص 177.

(4) أحمد الأنصارى: الأخلاق الاجتماعية عند برتراند رسل، مرجع سابق، ص 233.

القديمة، كان نمو المحاصيل وكثرتها وزيادة النسل ذا أهمية للإنسان، وعندما كان الدين يهتم بالأمور الغامضة والمهمة فى نفس الوقت، فقد كان الإنسان يلجأ إليه لتحقيق رغباته، والدين فى تلك المرحلة كان مرتبطًا بالسحر، وكان السحرة يعتقدون أن زيادة خصوبة الأرض ترتبط بخصوبة النساء، كذلك عند الأسر الحديثة نسبيًا فى مصر القديمة أخذ العنصر الجنسى فى الديانة صورة عبادة الذكر، وفى بلاد كثيرة كان يعتقد أن القمر هو الأب الحقيقى للأطفال، أما بعد اكتشاف دور الرجل فى الإنجاب تغيرت معتقدات كثيرة، وزاد اهتمام الدين بالجنس[1].

إذا كانت هذه هى نظرة الإنسان القديم للجنس من وجهة نظر الدين، فماذا كانت نظرة فيلسوفنا للجنس أو الزواج برمته عند ظهور الديانة المسيحية، وتسلط الكنيسة على أمور الحياة؟ وإلى أى حد جاءت أفكاره متطابقة مع الروح الدينية؟ أم جاءت أفكاره فى تناقض مع الكنيسة وروح الأديان؟ وإلى أى حد جاءت أفكار رسل فى الأخلاق الجنسية متضاربة مع الفكر الأخلاقى بوجه عام؟

فى البدء يقرر رسل حقيقة مهمة وهى محور وجهة نظره تجاه القيم المسيحية بوجه عام، فيرى أن: «القيم المسيحية عبر التشديد على الفضيلة الجنسية، أسهمت بقدر كبير فى الحط من مقام النساء، وبما أن الأخلاقيين رجالاً، ظهرت المرأة على أنها الفتنة، ولو كانوا نساء لكان للرجل هذا الدور. ولكون المرأة هى الفتنة كان من المرغوب منعها من أن تقود الرجال إلى الغواية وبالتبعية؛ فالنساء المحترمات يصبحن مصونات أكثر وأكثر بالضوابط، بينما النساء غير المحترمات اللاتى ليس لهن ضوابط فهن من الآثمات، حيث يعاملن بأقصى درجات الاستهزاء. ولم تستعد النساء إلا فى العصور الحديثة جدًا درجة الحرية اللاتى كن يتمتعن بها فى الإمبراطورية الرومانية. إن النظام الأبوى فعل الكثير لاستعباد النساء، ولكن معظم ذلك تم إبطاله قبل بزوغ المسيحية بعد الإمبراطور قسطنطين، تقلصت حرية النساء مرة أخرى تحت إدعاء حمايتهن من الخطيئة، ولم تبدأ النساء فى استعادة الحرية إلا بعد تحلل فكرة الخطيئة فى الأزمنة الحديثة»[2].

النص السابق ما هو إلا دعوة للتحرر من قيود الوعظ الدينى، أى أنه دعوة للحرية الجنسية.

(1) المرجع السابق: نفس الصفحة.

(2) برتراند رسل: أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص ص 141-140.

فقد أكد رسل على هذه القيود التى أحاطت موضوع الجنس فى كتابه «الزواج والأخلاق» فرأى أنه: «قد تم دحض فكرة الزواج التى تعمل على إنجاب الأطفال أو التكاثر منذ ظهور المسيحية وتعاليم القديس بولس حيث قدم القديس بولس للمسيحية فكرة جديدة وهى أن الزواج يكبح خطيئة الزنا The Sin of Fornication، وليس لكون الزواج هو الوسيلة التى يتم بها التكاثر و إنجاب الأطفال»[1].

يرى رسل أن آراء القديس بولس المقدمة عن الزواج لم تترك شيئًا لمعنى الرغبة desired فى رسالته الأولى «لأهل كورنيوس»، فقد قام القديس بولس بعرضها فى عدة مقولات، وأشار إليها رسل برؤية نقدية فى كتابة «الزواج والأخلاق» وكأن التعاليم المسيحية عنده متمثلة فى كلمات القديس بولس فقط، ناهيك عن الاتجاهات والمذاهب المتعددة فى الدين المسيحى من كاثوليك، وأرثوذوكس، وبروتستانت، وقد كانت المقولات من قبيل:

1. إنه من الأفضل فى نظر «القديس بولس» أن لا يلمس الرجل امرأة.
2. ولكن على الرغم من ذلك، ولكى نتجنب جريمة الزنا، فلندع كل رجل فى أن يختار زوجته، وأن ندع كل امرأة فى أن تختار زوجها.
3. من الواجب على الزوج أن يكون سخيًا كريمًا مع زوجته، وبالمثل يجب على الزوجة أن تكون كريمة مع زوجها.
4. إن الزوجة ليس لها سلطان على جسدها إلا لزوجها، وبالمثل أيضًا ليس للزوج سلطان على جسده إلا لزوجته.
5. إنى أقول للمطلقات وغير المتزوجات وكذلك الأرامل أنه من الأفضل أن تظلوا طاهرين مثلى.
6. ولكن إذا لم تستطعن الحفاظ على طهارتهن فليتزوجوا، فإن الزواج هنا أفضل من الحرق[2].

(1) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.27.

(2) Ibid: p.27.

يلاحظ الكاتب مما سبق، وهى ملاحظة قد أقرها رسل من قبل، وهى أن القديس بولس لم يشر إلى الأطفال، فهو فى تعاليمه السابقة لم يعطِ أى أهمية للغرض البيولوجى للزواج أو الجنس الذى شأنه التكاثر و إنجاب الأطفال. وهذا أمر طبيعى لأنه قد تخيل فى «المجىء الثانى»The Second Coming أن العالم زائل وأن الحياة الأبدية تكون بعد الموت[1].

و يفسر رسل رؤية القديس بولس فى الأخلاق الجنسية فيقول: « أن القديس بولس قد قرر أن العلاقات الجنسية الحميمة حتى تلك العلاقة الكامنة فى الزواج تحول الإنسان من الوصول للخلاص Salvation، ولكن يمكن للمتزوجين الحصول على الخلاص، فى حين أن الزنا يعد خطيئةً مميتةً deadly sin كما أن الزانى الذى لم يندم على خطيئته يجد نفسه بالتأكيد مع طائفة المعيز Goats[2].

إن القديس بولس كما يقول رسل لا يرى أى خير إيجابى فى عملية الزواج سوى أنه بديل لخطيئة الزنا[3]. فالرؤية المسيحية (يقصد بها رسل هنا تعاليم القديس بولس) ترى أن الجنس خارج إطار الزواج يعد أمرًا لا أخلاقيًا Immoral بل يعد فى نظر المسيحية خطيئة Sin[4].

ولكن تمادت النظرة المسيحية فى نقد الأخلاق الجنسية إلى حد جعلها ترفض أمورًا قد لا يقرها أو يقبلها عقل الإنسان، فكما أشار رسل أن الكنيسة قد حاربت بل هاجمت عادة الاستحمام The Bath على أساس أن أى شىء يجعل الجسد أكثر جاذبية ونشاطًا يشجع على الخطيئة، «فطهارة الجسد وأناقة ملابسه عند القديس بولس تعنى عدم طهارة الروح» the purity of the body and its garments means the impurity of the soul[5]. لذلك اعتبر القديس بولس الزواج المخرج الشرعى بدرجة تزيد أو تنقص من خطيئة الشهوة[6].

وعندما كان رسل يرفض النظرة المسيحية المقيدة للسلوك الجنسى هذه، فقد بادر ببعض التساؤلات التى من شأنها أن تجيب وتفسر الأخلاق الجنسية حيث أكد على أنه: «يجب النظر

(1) Ibid: p.28.
(2) Ibid: p.28.
(3) Ibid: p.28.
(4) Ibid: p.29.
(5) Ibid: p.29.
(6) Ibid: p.31.

فيما إذا كانت الأخلاقيات الجنسية تؤدى إلى ضرر أم لا، يجب أن أتعامل مع الأخلاقيات الجنسية كما أتعامل مع كل شيء آخر. يجب أن أقول أنه إذا كان ما تفعله لا يؤدى إلى ضرر لأى إنسان فلا يوجد مبرر لإدانته، ولكن بعض الأخلاقيين الجادين يحذروننا بأن هذا خطأ»[1].

وهنا يتبادر إلى ذهن الباحث أن الموقف الذى تبناه رسل يقف على النقيض من الرؤية المسيحية المقدمة فى كتابات القديس بولس، والتى أقرتها بالفعل الكنيسة، ولكن فى أخلاقيات الجنس يقف فيلسوفنا على النقيض من الدين، وكأن كل شيء مباح وجائز، حتى التعاليم الجنسية لا يجب حجبها طالما أنها لا تؤدى إلى ضرر الآخرين، وهذه الرؤية التى قدمها رسل جعلت الباحثين يدحضون وجهة نظره ويقابلونها بالرفض، وهذا هو الأمر الذى جعل آراء رسل فى أخلاقيات الزواج عامة وأخلاقيات الجنس بصفة خاصة تقابل بالرفض، فى حين كانت نظرياته الأخلاقية بداية طيبة للخوض فى غمار فلسفة الأخلاق التحليلية ومنهج النقد الخلقى.

لقد أشار «آلان وود» إلى تلك الأخطاء التى وقعت فيها نظرية رسل فى الزواج وأخلاقيات الجنس، فلخص «آلان وود» الخطأ الأول واعتبره خطأً أساسيًا، فى كون رسل قد أشار ضمنًا إلى أنه ليس فى الجنس شيئًا غريبًا، وأن أى جو من الغموض قد يحيط به لا يرجع إلا إلى اتجاه دعاة الأخلاق الذين يشيعون الجهل فى العصر الفيكتورى- وقد كان رسل يمقتهم لإضفاء هذا الغموض حول الجنس. حيث كان يعتقد هؤلاء أنه يجب ترك الأطفال فى حالة جهل مصطنع عن الجنس. ولكن رسل اتجه إلى الطرف النقيض، وكتب كما لو كان فى الإمكان ذكر كل شيء عن الجنس للأطفال. وتساءل رسل قائلاً: إنه إذا كان من الممكن استجلاء الغموض عن شيء رائع مثل الرياضيات، فلماذا لا يمكن استجلاؤه فيما يتصل بالجنس أيضًا[2].

وقد تمادى رسل فى تمجيد الجنس إلى الحد الذى جعله نظرية معرفية، حيث كتب يقول عن الجنس: « إن الشيء المهم هو أن نخلق بأسرع ما يمكن الشعور بأن الغموض الذى يكتنف الجنس لا يرجع إلا إلى الجهل به، وهو جهل يمكن تبديده عن طريق الصبر والجهد العقلى، وينبغى علينا أن نتناول الجنس بنفس الأسلوب الذى نعالج به حقائق الحياة العادية المألوفة تمامًا

(1) برتراند رسل: أفضل ما كتب، مصدر سابق، ص 147.

(2) آلان وود: برتراند رسل بين الشك والعاطفة، مرجع سابق، ص 168.

كما لو كنا نشرح مثلاً كيف يمكن لمياه الصودا أن تدخل الزجاجة الخاصة بها. وأن الأسلوب الذى يمكن به علاج صبى من اهتماماته المخلة بالآداب هو أن نغرقه بسيل من المعلومات حتى يشعر بأنه لم يعد هناك ما يجب معرفته، وأنه ليس فيما عرفه بالفعل ما يثير، كما يجب محاربة الخرافات القائمة على الخوف من الموت بنفس الأسلوب، بمعنى أنه يجب أن نصف الموت كما لو كان أكثر الأشياء التى نتخيلها ألفة»[1]. بل تمادى رسل إلى أبعد من ذلك الحد، فكتب ينصح الآباء والأمهات قائلاً: «افعلوا كل ما فى وسعكم حتى تجعلوا الطفل يشعر أنه ليس هناك أى غموض حول الجنس وحتى تتركوا فى نفسه الانطباع بأن الأمر ليس فيه ما يثير إلى حد ما»[2].

وهنا يرى الكاتب أن ما يدعو إليه رسل حول المعرفة الجنسية، وعلمية أخلاقيات الجنس، قد تجعل القارىء العام أن يقرر أن رؤية رسل فى الجنس والزواج تقف على النقيض من الفكر الدينى المسيحى، ولكن لو أمعنا النظر فى موقف رسل من الدين بوجه عام، لأمكننا القول بأن ما يدعو إليه رسل لا يستجدى العجب والغرابة، فلا أدريته الدينية تجعله يدعو بالضرورة إلى فكرة الحرية فى المعرفة الجنسية دون وضع الدين كقيد أو ضابط، فهو يريد هنا تأسيس الأخلاق الجنسية على أسس ومبادىء المعرفة العلمية، فيجعلها من الواجبات الضرورية والملحة لكل إنسان يدرك ويعقل الأمور، ناهيك هنا عن كون هذا الإنسان طفلاً صغيرًا أم شيخًا كبيرًا، أو كونه فتاةً أو إمرأة عجوز.

ويحاول رسل أن يوضح مضمون رأيه المجمل سابقًا، فيقول: «ولا ينبغى أن يؤخذ كلامى السابق على أنه دعوة للتحلل من كل القيود، ذلك أن امتناع المرء عن ارتكاب الرذائل لا يكون فى الواقع بدافع الدين وحده، أو الخوف من العقاب، وإنما يرجع ذلك إلى دوافع أخرى متعددة»[3].

وهذه الدوافع - من وجهة نظر الكاتب - تقرر أن بداخل كل إنسان إله داخلى (أقصد به الضمير الإنسانى) الذى يدفعنا نحو فعل الخير، وينهانا عن الفعل السيء، فالضمير هنا له سلطان على الأخلاق.

(1) المرجع السابق: 168.
(2) المرجع السابق: نفس الصفحة.
(3) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص 96.

ولقد أكد رسل على حقيقة مؤداها: «أن الحمقى وحدهم ومضطربي الفكر هم الذين يطلقون لنزواتهم العنان، وكلما عرضت لهم رغبة بادروا بتحقيقها دون التفكير في أثرها في الناس، وفيما تخلقه من إحساس داخلي بالرضى أو الضيق أو الألم»[1]. وهذا القول إن دل على شيء فإنه يدل على أهمية الضمير في المعرفة الجنسية إلى الحد الذي يجعل الضمير في مرتبة أعلى من الدين، بل إلى حد جعله يرى أن تعاليم الفلاسفة القدامى ذات أهمية أعظم من الديانة المسيحية في ذاتها. وقد صرح رسل بذلك في «لماذا لست مسيحيًا» بقوله: «إنني حقاً لا أجد أي حكمة ولا فضيلة في شخصية المسيح بالدرجة التي يحاول البعض تصويرها لنا عبر التاريخ. إنني مضطر أن أعتبر سقراط وبوذا أكثر حكمة من المسيح»[2].

وذاك دليل آخر أشار إليه الباحثون في فلسفة رسل، من حيث أنه قد رأى أن الدين والأخلاق التقليدية قد أقاما صرحًا عاليًا من الخرافات والمحرمات والعرف والبؤس والعقول المنحرفة والحياة التعسة على أساس أن الجنس شيء غريب، وأن هناك خوفًا من الموت في أغلب الأحيان، بل بلغت رغبة رسل في تقويض هذا الصرح حدًا جعله يريد إنكار ما قامت عليه من أساس، ولأنه يمكن للأخلاق التقليدية أن تخلق البؤس، فقد أراد أن تلغى وجودها[3].

ولا بأس هنا عندما نرى أن الفيلسوف محل الدراسة يرى: «أن العلم والدين يتمشيان معًا ولا تناقض بينهما، على اعتبار أن المقصود بالدين مجموعة من القواعد الخلقية فحسب»[4]. فهو هنا يريد تأسيس الأخلاق الجنسية القائمة على نظرية المعرفة، وبالتالي يرى أنه لا تعارض بين الدين والعلم، في حين أنه قام بالفصل التام في نظريته الانفعالية عند مقارنته الأخلاق بالعلم، من حيث كون الأخلاق مبنية على الرغبة والأحاسيس والمشاعر المتغيرة من فرد لآخر.

ولكن لابد أن نكون على يقين من كلمات رسل هذه، فإن كان قد رأى أن الدينَ عبارةٌ عن مجموعة من القواعد الخلقية، فهو قد رفض الإيمان بهذه الأديان برمتها، فالقارئ لكتابه

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(2) B. Russell: Why I am not a Christian, George Allen & Unwin Ltd, London and new York, 1957, p.14.

(3) آلان وود: برتراند رسل - سيرة حياته، مرجع سابق، ص 217.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص99.

«لماذا لست مسيحيًا» يرى أن تعاليم رسل الأخلاقية تقف على النقيض من تعاليم المسيح، بل أراد تقويض الديانة المسيحية عندما قام بتفسير المشكلة الأخلاقية فيه، وذلك فى قوله: «نحن الآن بصدد التطرق إلى السؤال الخلقى، بأن هناك خللاً وقصُورًا فى شخصية المسيح، وذلك لأنه وعد بالجحيم للكفار، فأنا لا أتصور أن هناك شخصًا يملك أخلاقًا إنسانية يمكن له أن يعد إنسانًا آخر بعقوبة أبدية «أى الخلود فى العذاب». إن المسيح بالتأكيد يوجد به خلل فاضح فى الإنجيل the Gospels، لكونه يبشر بالعقوبة الأبدية، بل لكونه يبشر دائمًا بالعذاب والعقاب لكل إنسان لا يصغى لدعوته الدينية، وهذا الموقف الذى اتخذه المسيح لا نجده شائعًا لدى الدعاة والمبشرين الحقيقيين، وهذا الأمر بالفعل ينقص من ألوهية المسيح»[1].

و يستطرد رسل رأيه فيقول: «ومن الأمثلة التى تبرر ما أقوله أننا لا نجد هذا الوعيد بالعقاب صادرًا من فيلسوف كسقراط مثلاً، فسقراط لم يتوعد من لا يوافقونه فى الرأى بالعذاب أو الجحيم، بل وجدناه متحضرًا ورجلاً إنسانيًا مع كل الأشخاص الذين يخالفونه الرأى، وأنا أرى أن سقراط لم يكن يلوم bland أحدًا ممن خالفوه فى رأيه، و إنكم لتعرفون بعض الكلمات التى قالها سقراط وهو يحتضر، بعد أن حُكم عليه بالإعدام، كما أنكم تتذكرون بعضًا من الكلمات التى وجهها إلى هؤلاء الأشخاص الذين يمثلون منه الموقف النقيض»[2].

ومن أمثلة وعيد المسيح لكل من خالفه فى رأيه، أنه قال فى الإنجيل(*): «أيتها الحيات أولاد الأفاعى، كيف تهربون من ديمومة جهنم، وعذابها الخالد». هذا القول الصادر من المسيح كان موجهًا إلى أولئك الأشخاص الذين لم يؤمنوا بدعوته الدينية، كما أن هناك الكثير من الإشارات الواردة فى الإنجيل والتى تتحدث عن الجحيم hell، فهناك بالطبع النص الشهير الذى يتحدث عن الخطيئة Sin تجاه الروح القدس the Holy Ghost ونصه فى الإنجيل(**) «أنه من تحدث بكلمة على الروح القدس لن يغفر له فى هذا العالم، ولا فى العالم الآتى» فهذه الآية السابقة قد

(1) B. Russell: Why I am not a Christian, op. cit, p.13.

(2) Ibid: p.14.

(*) «'Ye serpents, ye generation of vipers, how can ye escape the damnation of hell?'»

(**) «'Whosoever speaketh against the Holy Ghost it shall not be forgiven him neither in this world nor in the world of come."

كانت سببًا فى الكثير من المآسى misery تجاه الأشخاص الذين اتهموا بالإساءة للروح القدس، وكانت العقوبةُ ضدهم مبنيةً على أنه لا غفران لهم، ويجب عقابهم فى الدنيا والآخرة»[1].

إن النصوصَ السابقةَ التى وردت على لسان برتراند رسل توضح الموقف الرئيسى الذى تبناه من الدين، وبالتالى تتضح لنا الصورة العامة التى أسسها رسل للجنس والحرية الجنسية أنها رؤية تتعارض مع الدين، فهو لم يضع الدين رادعًا للحرية الجنسية، بل سخر من شخصية المسيح وحكمته، لدرجة جعلته يرى فى الفلاسفة القدامى حكمة تفوق حكمة المسيح، ويتضح موقفه هنا أكثر عندما قارن بين المذاهب الثلاثة فى المسيحية، وموقف كل منها تجاه الأخلاق الجنسية.

يرى رسل: «أن الزواجَ له غرضان فى العقيدة الأرثوذكسية المسيحية orthodox Christian الأول كما قدمه القديس بولس، وهو أن الزواج يكبح خطيئة الزنا، والآخر هو التكاثر وإنجاب الأطفال. والنتيجة المترتبة على آراء القديس بولس فى المذهب الأرثوذكسى، هو أن الأخلاق الجنسية أصبحت أكثر خطورة وأكثر صعوبة، وحتى إن كانت العلاقة الجنسية كامنة داخل إطار الزواج، وبطريقة شرعية وقانونية تعد خطيئة إن لم يكن الهدف منها التكاثر وزيادة النسل»[2].

كما أن الرغبةَ فى إنجاب الأطفال وصلت أيضًا إلى المذهب الكاثوليكى المسيحى catholic Christian فالدافع الوحيد الذى يبرر وجود العلاقة الجنسية الحميمة بين كل من الرجل والمرأة هو التكاثر، بالإضافة إلى كون العقيدة الكاثوليكية تعتمد على التدين الصارم الموجود بالفعل فى كلمات القديس بولس، كما تعمل أيضًا على زيادة عدد الأرواح فى العالم، طالما أن كلَّ روحٍ قادرةٌ على الخلاص، وبالتالى أكدت الكاثوليكية المسيحية على قداسة الزواج من حيث كونه لا يقبل الانفصال أو الطلاق، حتى وإن أصيب أحدُ الزوجين بمرض الجنون أو أصبح أحدهما سكيرًا ومداومًا لشرب المسكرات، فإن العلاقة الزوجية على الرغم من ذلك لابد أن تبقى قائمة[3].

(1) Ibid: p.14.

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.31.

(3) Ibid: p.31.

إن هذا الموقفَ الذى اتخذته العقيدةُ الكاثوليكيةُ قد فنده رسل وقام بمهاجمته، حيث رفض أفكارهم فى عدم الطلاق، وقد أكد فيلسوفُنا على ذلك عندما قال: «قد تظنون أن كلامى ملىءٌ بالمبالغات عندما أقول أن الكنيسة ما زالت على حالها الاستبدادية، وأنا لا أعتقد أننى قد بالغت فى شىء، وسوف أذكر لكم هذه الواقعة الحقيقية، فيجب أن تتحلوا بالصبر، فهى ليست بالواقعة التى تجلب الفرح والسرور لكم، والكنائس فى حاجة ماسة لسماع هذه الوقائع وهى: هب أن فى العالم الذى نحيا فيه فتاة ناضجة تريد الزواج برجل مريض بالزهرى syphilitic man، ففى هذه الحالة ستقول الكنيسة الكاثوليكية: «إن هذا الزواج مقدس وأبدى، لهذا يجب أن تبقيا متزوجين للأبد» this is an indissoluble sacrament, you must stay together for life ولن يحق للمرأة وفق المعتقد الكاثوليكيى بأن تمنع نفسها من إنجاب الأطفال من مريض الزهرى، و إن كانت النتيجة ستؤول إلى أن الأطفال مصابه بالزهرى أيضًا. وأنا أرى أن موقفَ العقيدة الكاثوليكية هنا غاية فى الهمجية fiendish cruelty فكل إنسانٍ لم ترتبط عواطفه بالعصبية الدينية dogma سوف يرى ضرورة وقف هذا التشريع وعدم استمراريته[1].

وهنا يرى رسل «أن هناك العديدَ من الممارسات الحالية للكنيسة تتذرع بما تسميه الأخلاقية morality، فلا تزال الكنيسة هى المعارض الأكبر لكل مشروع إنسانى يحاول تخفيف المعاناة البشرية diminish suffering[2]. لذا كانت رؤية الفيلسوف محل الدراسة أن الموقف الكاثوليكى تجاه الجنس يؤدى إلى الكثير من حالات البؤس والتعاسة التى يعيشها الإنسان، ولكن كان لابد للإنسان أن يتحمل بؤسه وتعاسته، طالما أنها إرادة الله[3].

أما النظرة البروتستانتية Protestantism فقد كانت مختلفة إلى حد ما، فقد هجرت مدح العذوبية التى كانت من ضمن خصائص الكنيسة الكاثوليكية، كما تخلت عن تقديس الزواج، وسمحت بالطلاق فى بعض الظروف المعينة، وذلك على الرغم من قسوتها وصرامتها الفكرية فى إدانتها ولعنتها لخطيئة الزنا[4].

(1) B. Russell: Why I am not a Christian, op. cit, p.17.
(2) Ibid: p.17.
(3) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.31.
(4) Ibid: p.31.

وهنا أوجزت الدكتورة: أميرة حلمى مطر ما ذهب إليه رسل فى موقفه تجاه المذاهب الدينية المسيحية، ورؤيتها لأخلاقيات الجنس بقولها: «أن زيادة الاهتمام بالجنس وتسلط فكرة الحرية الجنسية فى الحضارة الحديثة، إنما كان استجابة عكسية للتعاليم المسيحية التى أحاطته بكثير من القيود والمعتقدات الخرافية القديمة»[1].

ويمكن تلخيص رأى رسل بإيجاز فى فصله بين الجنس والدين، ودعوته للحرية الجنسية، فى رؤيته التى لا يقبلها دين من الأديان، ولا تقرها أية أخلاق إنسانية، و إنما كانت عند الباحث مجرد اقتراح، ولا يزيد عن كونه «اقتراح» فى قوله: «أن حياة معظم طلبة الجامعة ستكون أفضل من الناحية الفكرية والأخلاقية، إذا عقدوا زيجات مؤقتة دون إنجاب أطفال». بل كتب يقول «أن هذا سوف يقدم مخرجًا للدافع الجنسى، دون ممارسة الجنس فى قلق أو فى الخفاء، وهى ممارسة لن تكون مرتزقة أو عارضة، كما أنها من نوع ليس من شأنه أن يضيع وقت الطلبة الذى ينبغى تكريسه للعمل، وأنه حتى الآن لم تنظر أية سلطات جامعية إلى هذا الاقتراح بعين العطف»[2].

ومما يعجب له المرء وتقشعر منه النفس الإنسانية ما جاء على لسان «جريلينج» عندما كتب عن رسل يقول «وفى عام 1920م قام رسل وزوجته «دورا» بإنشاء مدرسة فى الريف على مساحة 200فدان، ولكن سرعان ما ثبت فشل هذه المدرسة فى تغطية مصاريف الحياة المعيشة وكذلك الأعباء الأسرية، وبعد أن فشلت هذه المدرسة التى أسسها رسل وزوجته، وكذلك موت أخيه زادت الديون والأعباء عليه، مما دفع زوجته «دورا» إلى إقامة علاقات غير شرعية مع رجال آخرين، وهنا لم يكن رسل يمانع ذلك أو يرفضه طالما أن نتاج هذه العلاقات لا ينسب إليه كرجل»[3].

رابعا: الجنس ومشكلة الحب

إلى أىٍّ حد يمكن القول بوجود علاقةً وطيدةً بين الحب والجنس؟ وهل يمكن اعتبار الحب سببًا من أسباب الزواج أو الجنس؟ وما الكيفية التى ظهر بها الحب فى فلسفة برتراند رسل

(1) أميرة حلمى مطر: مقالات فلسفية حول القيم والحضارة، مرجع سابق، ص 43.
(2) آلان وود: برتراند رسل - سيرة حياة، مرجع سابق، ص 223.
(3) A.C. Grayling: Russell, A Very Short Introduction, Op. cit, pp.21,22.

الأخلاقيـة؟ وما هو الحب العذرى؟ وهل هناك علاقة بين الحب العذرى والحب الرومانتيكى؟ بمعنى - هل من الممكن اعتبار الحب العذرى مرادفًا لمفهوم الرومانتيكية للحب؟

إن الحب Love نقيضُ البغض، وهو الوداد والمحبة والميل إلى الشيء السـار، والغرض منه إرضاء الحاجات المادية أو الروحية، وهو يترتب على كمالٍ في الشيء السار أو النافع، يفضى إلى انجذاب الإرادة إليه، كمحبة العاشـق لمعشوقته، والوالد لولده، والصديق لصديقه، والمواطن لوطنـه، والعامل لمهنته[1]. وهذا التعريـف المعجمى إن دل على شيء، فإنما يدل على قدم مفهوم الحب، فهو منتشر بين شـتى مناحى الحياة الإنسـانية، وهذا ما أكد عليه برتراند رسـل بالفعل عندما قال: «أنه منذ أدرك الإنسان معنى الحياة عرف أيضًا معنى الحب، فالحب من أهم الأشياء فى حيـاة البـشر، وأن أى نظام اجتماعى يعمـل على الحد من التطور الطبيعـى للحب لهو نظام قاصر وفاسد»[2].

وأهمية الحب تنبع من داخل حياة رسـل ذاتها، فالحب وطيد الصلة بحياة الإنسان المعيشة منـذ ميلاده على هذه البسـيطة، وقد عبر فيلسـوفنا عنه بكلمات جذابـة فى معناها بقوله « لقد لجأت إلى الحب أولاً، لكونه يجلب النشوة، وهى نشوة وصلت من العمق حدًا كان يمكن معه أن أضحى بما بقى من الحياة من أجل بضع سـاعات من هذه السعادة. ثم تلمسته ثانيًا، لأنه يخفف الوحـدة. هذه الوحـدة الرهيبة التى يشرف فيها الوعى الراجف على حافة عالم يدلف إلى هوة باردة سـحيقة لا يسبر لها غورًا ولا حياة فيها. ثم تلمسته أخيرًا، فى الرؤية التى تتمثل للشعراء والقديسـين حينما ينظرون بعين الخيال إلى الفردوس، وذلك عن طريق الحب الذى يربط بين قلبين ربطًا كاملاً، فيستشعران تجارب العشاق الإلهيين، هذا ما سعيت إليه، وبالرغم من أنه قد يبدو أفضل مما تمنحه حياة الإنسـان، فقد كان فى النهاية - هو ما وجدته»[3]. ويسـتطرد بقوله: «تلـك كانـت حياتى، لقد وجدت فيها ما اسـتحق أن أعيش من أجله، ولـو منحت لى الفرصة لأسعدنى أن أعيشها مرة أخرى»[4].

(1) جميل صليبا: المعجم الفلسفي، المجلد الأول، مرجع سابق، ص439.
(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص101.
(3) برتراند رسل: سيرتى الذاتية، مصدر سابق، ص7.
(4) المصدر السابق: ص8.

إن رؤية رسل كفيلسوف لمفهوم الحب، تجعله يبدد ما ذهب إليه البعض، فى اعتبارهم أن الحب موضوع قديم، قد احتكره منذ الأزل أهل الأدب من الشعراء والراوئيين والقصاصين، فقال أحدُهم إن الحب ليس في حاجة إلى فلاسفة أو محللين، بل هو في حاجة إلى شعراء أو فنانين، حيث أن مقولات الفلاسفة مجرد مقولات عقلية لا يمكن أن تدخل في قوالبها الانفعالات الإنسانية العميقة التى اعتاد الأدباء أن يعبروا عنها[1].

إن الرؤية التى قدمها رسل لمفهوم الحب تختلف عن رؤيته لمفهوم الحب العذرى، فقد رأى فيلسوفنا أن الحبَّ العذريَّ(*) هو ذلك الحب الذى لا غاية له، فهو عاطفة من أقدم العواطف الإنسانية، وإن كان لم ينتشر بصورة واضحة بين الناس فى بلدان أوربا إلا فى القرون الوسطى[2]. «حيث اكتسبت المشاعر والأحاسيس بشكل عام فى العصور الوسطى أهمية خاصة فى الحب الرومانتيكى Romantic Love، فقد كانت النظرة إلى عاطفته بأنها شيءٌ محبوبٌ من الصعب امتلاكها، لذا كان الكثيرون يبذلون المجهودات الشاقة على شتى الطرق من أجل الفوز به، أما إذا قلنا بأن الحب الرومانتيكى هذا لم يكن موجودًا قبيل العصور الوسطى، فإننا نكون قد جانبنا الصواب»[3].

ومضمون ذلك الحب، كما يقول الفيلسوف محل الدراسة، هو اعتبار الحبيبة شيئًا مقدسًا ساميًا لا تصل إليه يد العاشق الولهان، فهو لا يطمع فى وصال، ولا يبتغى منه مطمعًا، قانعًا بما يبذله من مجهودات شاقة لكسب قلب الحبيبة، أهونها نظم القصائد والأشعار، وعزف ألحان القيثارة، وأصعبها إظهار البراعة فى القتال، والتفوق على الأقران[4].

ويتضح مما سبق أن رسل هنا يستخدم مفهوم «الحب العذرى» الذى عبر عنه فى «عالمنا المجنون» كمرادف «للحب الرومانتيكى» الذى جاء فى مؤلفه «الزواج والأخلاق»، وأيًا كان

(1) زكريا إبراهيم: مشكلة الحب، مكتبة مصر، القاهرة، 1984، ص19.

(*) الحب العذرى مصطلحًا مشتقًا من الكلمة الإنجليزية Virgim وتعنى العذراء أو البكر، وعند الفلكيين يدعى برج العذراء Virgo ..المؤلف.

(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص107.

(3) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.37.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص107.

الحـب «رومانتيكيًـا» أم «عذريًا» فما هو إلا تعبير عن الحـب الأفلاطونى. وعلى أية حالٍ فإن الرومانتيكيين توسـعوا في مجال الحب بالمفهوم الأفلاطـونى، إذ أصبح الحب عندهم فضيلة من أعظـم الفضائل، يتم به تطهـير النفوس، والتكفير عن الخطايا، ففـي مسرحية فيكتور هوجو «ماريون ديلورم» تكفر البغي عن خطاياها بواسطة الحب والإخلاص فيه، بل تحولت العاطفة عنـد الرومانتيكيين إلى نوع مثالى عذرى، ففي مسرحية هوجو «روى بلاس»Ruy Blass نجد البطل يعترف بحبه للملكة فيقول: «أحبك حبا صادقًا... وا أسفاه... إنى أحلم بك حلم الأعمى بالضوء، سـيدتى أصغـى إلي، عندى أحلام لا نهاية لها، أحبك من قريـب ومن بعيد وفي أعماق الظلام، ولا أجرؤ على لمس إصبعك»[1].

يرى رسـل أن: «الحب الرومانتيكى ظهر فى العصور الوسـطى بطريقـة غير مباشرة، فهو لم يكـن موجهًـا فى البداية تجاه المرأة التى كانت على علاقة جنسـية شرعية أم غير شرعية مع عشيقها، و إنما وجه الحب العذرى نحو النساء الأكثر إلتزامًا وتدينًا»[2]. وذلك للاعتقاد بالقيمة العظيمة لمكانة المرأة Lady وصعوبة الحصول عليها[3].

إن صعوبـة نيل المحبوبة - عند فيلسـوفنا - هو العلة النفسـية التى تجعـل المحب الولهان يعتقد فى سموها، و إحاطتها - من ثم - بهالة من التوقير والتقديس، فإذا كان فى مقدور العاشق أن ينـال محبوبتـه، فلن يكون حبه لها عذريًا أو شـاعريًا. وقد كان ذلك الحب الذى شـاع فى العصور الوسطى موجهًا إلى نساء من الطبقة العليا ذات السلطان والجبروت، لا يستطيع العاشق أن يتصل بهن اتصالاً جنسيًا مشروعًا أو غير مشروع. أضف إلى ذلك ما كان للكنيسة من تأثير هائل يوقع فى النفس أن الاتصال الجنسى أمر شـائن ومستهجن، فأصبح الشعور الجميل بالحب غير ممكن إلا إذا كان حبًا أفلاطونيًا خالصا[4].

ويحاول رسل تحليل ما وصل إليه الحب العذرى فى العصور الوسطى، فيرى: «أنه من المتعذر على القارىء العصرى أن يتصور الحالة النفسـية لشعراء الغرام والغزل فى القرون الوسطى. فقد

(1) على عبد المعطى محمد: فلسفة الفن، دار النهضة العربية، بيروت، 1985، ص32.

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.38.

(3) Ibid: p.37.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص ص107، 108.

كان الشاعر منهم يتغزل فى حب فاتنته، ولكنه لا يطمع فى الاقتراب منها بأية صورة من الصور. وقد يتوهم القارىء العصرى أن ذلك الحب لم يكن إلا تقليدًا من تقاليد الآداب فى ذلك العصر، بيد أنىَّ أؤكد له أن حبًا كحب «دانتى» لـ«بياترس» كان جارفًا صادقًا بدرجة لا يمكن أن يصل إليها عشاق العصر الحديث، ولكن أهل تلك العصور كانوا يرون أن الحياة الدنيا لا قيمة لها، وأن الغرائز الدنيوية ليست إلا نتاج الخطيئة والفساد، ومن أجل ذلك كرهوا الجسد ورغائبه، وكان المثل الأعلى للسعادة لديهم هو الوصول إلى حالة من النشوة الروحانية التى لا تشوبها شائبة من شوائب الجسد ولذاته! فإذا أحب أحدهم أية امرأة محترمة، فإنه فى هذه الحالة لم يكن يسمح لنفسه بأن يتصور اتصاله بها إتصالاً جنسيًا، لأن كل ما هو جنسى فهو دنس فى نظره... وعلى هذا فلم يكن أمامه سوى الاتجاه العذرى الشاعرى الأفلاطونى المبنى على الخيال»[1].

وهنا يتساءل الكاتب:

إذا كان الحبُّ العذريُّ لزامًا على عشاق العصور الوسطى المسيحية، فهل كان له امتداد فى الفترة الحديثة والمعاصرة؟ أم ارتبط كل من الجنس والحب برباط الزواج؟؟ وما هو تحليل برتراند رسل لذلك؟؟

يرى رسل: «أنه عند بزوغ عصر النهضة الأوربية، بدأت حضارة القدامى- والإغريق بصفة خاصة تستعيد سطوتها، فانسلخت عن الحب صبغته الأفلاطونية، وإن بقيت له صبغته الشاعرية، بيد أنها شاعرية صريحة تستهدف الفوز بقرب المحبوبة والتمتع بوصالها. وقد بلغ من لزوم التعبير الشعرى عن عاطفة الحب فى عصر النهضة أن كان العاشق الذى لا يفتح الله عليه بقصيدة عصماء يبث بها محبوبته هواه، يستأجر شاعرًا لهذا الغرض، وكان من الشعراء من يحترف ذلك النظم، بأجر معين يتقاضاه عن كل بيت من أبيات الشعر. وما أن سهل منال المرأة حتى انتهت الحاجة إلى الأسلوب الشعرى فى الغزل، واستعمل الرجال وسائل أخرى لاقتناص قلوب النساء، وما من شك فى أن سهولة منال المحبوبة فى عصرنا الحديث هذا قد أثرت فى الشعر والفن والموسيقى تأثيرًا هادما»[2].

(1) المصدر السابق: ص 108.

(2) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص 109.

وبعد الحديث عن عصر النهضة الأوربية نجد فيلسوفنا يعود بنا إلى العصر الرومانى للكشف عن ماهية الحب فيه، وتلك الكيفية التى ظهر بها الحب والجنس، فرأى أن: »شاعريةَ الحب قد بلغت ذروتها العليا فى العصر الرومانى، ذلك العصر الذى فى إمكاننا أن نعتبر الشاعر «شيلى»(*) لسانه المعبر وصاحب لوائه، فإنه حينما كان قلبه يخفق بالحب كان يصب عواطفه كلها فى قالب شعرى جميل ورائع، لأن محبوبته كانت تضن عليه بالوصال، ولو أن تلك المحبوبة البائسة «أميليا فيفانى» لم تحمل إلى الدير قسرًا كى يحول أهلوها بينها وبين حبيبها الشاعر، لما ظفر الأدب بتلك الرائعات الفذة من شعر الغزل والنسيب التى أبدعها «شيلى» تحت عنوان «أبيسيكيديون»(1).

وعقب الثورة الفرنسية انتشرت فى أوربا وأمريكا موجة فكرية تنادى بأن الزواج يجب أن يسبقه حب عذرى، فلا يقوم على أساس التقاليد والاتفاق بين الأسرتين دون نظر إلى عواطف العروسين، بيد أن التجربة قد أثبتت فشل كثيرٍ من زيجات الحب العذرى، لأن ذلك الحب يوهم العروسين أنهما سيعيشان فى نشوة دائمة، ثم تأتى وقائع الحياة الزوجية وما يكتنف الاتصال الجنسى من توافق أو تنافر، فتتبدد تلك الصورة الخيالية، وتكون الصدمة شديدة وممعنة فى شدتها، ولا سيما للمرأة إذا كانت قد تربت على الجهل بالجنس أو النفور منه»(2).

وبعد أن حاول رسل تحليل مضمون الحب العذرى(**) الذى يعد غاية فى ذاته، فهو عبارة

(*) هو الشاعر الإنجليزى الرومانتيكى بيرسى بيش شيلى Percy Bysshe Shelley ولد فى 4 أغسطس عام 1792م، وتوفى فى 8 يوليو لعام 1822م، ويعد شيلى واحدًا من أفضل الشعراء الغنائيين فى البلاد الناطقة بالإنجليزية، وقد عُرف بقصائده القصيرة مثل «أوزيمانديا‌س» Ozymandias، «أغنية للرياح الغربية» Ode to the west، «السحاب» The Cloud، كما أن أعماله المهمة تتضمن قصائده الروائية الطويلة مثل «روح العزلة» Alastor، «ثورة الإسلام» The Revolt of Islam. وقد تأثر به الكثير من الشعراء الفيكتوريين أمثال «روبرت براوننغ» كما تأثر به «هنرى ديفيد ثورو»، وقد أعجب به كل من «كارل ماركس» و«برتراند رسل».

Look - http://en.wikipedia.org/wiki/Percy_Bysshe_Shelley (24/4/3/2013)

(2) المصدر السابق: ص 110.

(3) المصدر السابق: نفس الصفحة.

(**) يرى الكاتب أن رسل أطلق على مفهوم الحب العذرى فى كتابه «عالمنا المجنون» مسمى «الحب للحب» Love for Love وكان يقصد به معنى الحب الأفلاطونى، بينما فى مؤلفه «الزواج والأخلاق» أطلق عليه=

عـن صورة مثالية للنزعـة الأفلاطونية وتمجيدها لليوتوبيا، فمبدأ الحب العذرى عند رسـل هنا يشابه إلى حد بعيد فكرة «الفن للفن» Art for Art فى مثاليتها الكانتية، ومن ثم حاول فيلسوفنا تحليـل مضمون الحب الأصيـل Intrinsic Love الذى نهايته الزواج سـواءً كان شرعيًا أم غير ذلـك، فرأى رسـل: «أن الاسـتعمال الصحيح لكلمة الحـب لا يدل على أية علاقـة بين الرجل والمرأة، و إنما يدل على عاطفة قد تنطوى عليها هذه العلاقة»[1]. وهذه العاطفة emotion ذات علاقة نفسـية وجسـدية تصل فى قوتها إلى أية درجة من درجات القوة والصرامة، وقد تكونت هـذه العواطـف تجاه الحب مـن خلال التجارب وخبرات السـنين التى مر بهـا كل من الرجال والنساء[2].

و يرى رسل أن ازدهار عاطفة الحب فى بعض المجتمعات، وعدم ازدهارها فى بعضها الآخر، إنمـا يرجع إلى الاختلاف فى العادات والتقاليـد الموروثة، وقيم هذه الأفراد، وليس إلى اختلاف فى طبيعة الأفراد[3]. ولذلك يقول رسل: «إننى لا أجد مبررًا لذلك العداء التقليدى القديم الباقى بين الدين والحب، والذى لا يزال أثرُه راسخًا فى نفوس الناس»[4].

وكما حاول رسل تحليل مضمون الحب العذرى من قبل - فى المجتمعات الكنسية فى العصور الوسـطى، والمجتمع الرومانى - يحاول أيضًا تحليل مضمـون الحب الأصيل[*] فى عدة صور من المجتمعـات سـواءً كانت قديمة أو حديثة، فبدأ فيلسـوفنا بالمجتمع الصينى فرأى «أن عاطفة

= «الحب الرومانتيكى» Romantic love ومن ثم حاول توضيح ما وصلت إليه العصور الوسطى المسيحية فى تفسيرها لمعنى الحب، ومن هنا اختلف مفهوم الحب فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة عن الفلسفة المسيحية التى مجدت به الزهد وحياة الوحدة.

(1) المصدر السابق: ص101.

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.62.

(3) Ibid: p.62.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص107.

(*) يشير الكاتب هنا إلى حقيقة مؤداها أن رسل فى كتاباته لم يشر إلى كلمة الحب الأصيل Intrinsic Love و إنما المعنى الذى قصده هنا هو الحب، واستخدم لها نفس المعنى ونفس الكلمة، بينما أراد الباحث هنا التفرقة فى بحثه بين مفهوم الحب العذرى الذى أسماه بالرومانتيكى تارة، وبالحب الأفلاطونى تارة أخرى، وبين مفهوم الحب الذى يقصده رسل فى شتى كتاباته، والذى غايته الزواج أو العلاقة الجنسية، فالحب هنا يعد وسيلة للتقرب إلى المحبوبة والظفر بها، ولا يقف عند حد العشق اليوتوبى.

الحب كانت فيه نادرةً جدًا، حيث أظهر لنا التاريخ أن الحب هو سمة الأباطرة الضعفاء، فقد كانوا يستخدمونه لتضليل عشيقاتهم وجواريهم سيئات السمعة، وعلى ذلك قامت الثقافة التقليدية الصينية برفض كل العواطف القوية، حيث كان واجبًا على كل رجل رشيد تحكيم عقله فى كل الظروف، وقد تشابهت حالة المجتمع الصينى العاطفية مع المجتمع الأوربى فى بدايات القرن الثامن عشر »[1].

بينما عند ظهور الحركة الرومانتيكية، وكذلك الثورة الفرنسية والحرب العظمى، بدأ الإنسان يدرك أن العقلَ هنا قد فقد سيطرته فى الحياة الإنسانية، وفى عهد الملكة «آن» Queen Anne أعتبر العقل ذاته خائنًا، وخاصة بعد ظهور مذهب التحليل النفسى the doctrine of psycho analysis حيث أصبحت هناك موضوعات أساسية فى الحياة الحديثة، وهى ثالوث الدين والحرب والحب، فهذه المفاهيم الثلاث يعدها البعض أنها تقع خارج نطاق العقل، حتى أخطأ البعض فى اعتبار الحب معاديًا للعقلانية (ينظر العقليون من فلاسفة عصر التنوير إلى العواطف والأحاسيس وكذلك الحب إلى أنها تعوق التفكير العقلى المجرد)، بينما اعتقادى هنا أن الرجلَ العاقلَ يشعر بالبهجة والسرور فى وجود الحب[2].

ويؤكد رسل أنه: «فى العصر الحديث وجد العداء والصراع بين كل من الدين والحب، وهو لا يعتقد أن هذا الصراع كان يمكن تجنبه، وهذا يرجع فى اعتقاده إلى أن الديانة المسيحية تختلف عن باقى الأديان الأخرى فى تمجيدها ومدحها للزهد وحياة العزوبية، كما كان هناك عدوٌّ آخر للحب، وقد كان أكثر خطورة ألا وهو إنجيل العمل والنجاح الاقتصادى الذى كان منتشرًا فى أمريكا بصفة خاصة»[3]، حيث أصبح الناس يحرصون كل الحرص على جمع أكبر قسط من الربح، ولو كان ذلك على حساب الحب. وهو طبعًا لا ينكر أن النجاح فى العمل أمر مرغوب فيه، بيد أن المرء يجب ألا يسرف فى أىّ أمر، كما يجب ألا يقصر فيه، بل يتخذ طريقًا وسطًا بين هذا وذاك. وقد يكون من الحماقة والغباء أن يضحى الإنسان بمستقبله فى سبيل الحب فى بعض الأحيان، ولكن من الحماقة أيضًا أن يضحى بالحب فى سبيل مستقبله[4].

(1) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.62.

(2) Ibid: p.62.

(3) Ibid: p.63.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص102.

يـرى رسـل أن التضحيـةَ من النـوع الأول قد تعـد لونًا من ألـوان البطولـة أحيانًا، ولكن التضحية من النوع الثانى لا تعد بطولة على الإطلاق. على أن ما يدعو للأسـف حقًا أن المجتمع العصرى تغلب عليه نزعة التضحية بالحب، وذلك لأنه مجتمع مبنىٌّ على أساس التزاحم فى سبيل المال، ولا شىء سوى المال[1].

ويحاول رسـل هنا اسـتخلاص مضمونَ الحبِّ مـن فكرة الطبيعة، فـيرى: «أن الطبيعة لم تخلق الكائنات البشرية لتعيش وحدها، والرجل لا يسـتطيع أن يحقق رسـالته البيولوجية بغير إمرأة، كذلك الحال بالنسبة للمرأة، فهى لا تستطيع بغير رجل أن تحقق هذه الرسالة. والإنسان المتمدن لا يستطيع إشباع غريزته الجنسية إشباعًا صحيحًا بغير حب، ذلك أن الغريزة لا يمكن إشباعها حقًا إلا بأن يشترك الرجل والمرأة بكل كيانهما ذهنيًا وجسديًا فى هذه العلاقة. والذين لم يتذوقـوا متعة الامتزاج الروحى الوجدانى العميق، والإنسـجام النفـسى الذى ينطوى عليه الحب المتبادل، قد فاتهم أمتع شىء أعدته الحياة للإنسـان، وهم عن طريق اللاشـعور يدركون ذلـك فيمتلكهم اليأس، واليأس هنا يدفعهم إلى الحسـد والحقد والقسـوة والميل إلى الإضطهاد. فلنعمل إذن- بكل ما فى وسعنا،لإسـتئصال الإحسـاس بالإثم الذى تقرنه التقاليد البالية بالحب والحيـاة الجنسـية، حتى بعد الزواج، فإن هذا الأمر يسـبب الكثير من الإضطرابات النفسـية والعاطفية»[2].

ويؤكد رسـل على وجود عقبة سـيكولوجية أخرى تعوق ازدهار الحب فى العصر الحاضر، ويعـنى بها فيلسـوفنا - اعتقاد الناس أن العزلـة والانطواء على النفس بما يحفـظ للمرء كرامته وشـخصيته، وهذا محض خطأ. فالشخصية ليسـت هدفًا لذاتها، ولكنها وسيلة لتمهيد الاتصال بالناس، والشـخصية التـى تحفظ فى صندوق من الزجاج تذبل وتضعف، بينما الشـخصية التى تنفق منها بغير حساب فى الاتصال بالآخرين تزداد قدرة وقوة على مر الأيام[3].

ومـن هنا يرى برتراند رسـل أن تهيئةَ الطريق لفهم الحب الصحيـح أمرٌ ينبغى أن يعنى به الآباء والمربون والأمهات وعلماءَ الاجتماع، وإلا تعذر تنشـئة شـباب ينطوى إحساسهم نحو

(1) المصدر السابق: نفس الصفحة.
(2) المصدر السابق: ص ص-104 105 .
(3) المصدر السابق: ص105 .

غيرهم على ذلك الشعور الجميل الخلاق. كما أن الحبَّ ضرورةٌ - أيضًا- لإشباع غريزة الحب الأبوى، والأطفال غالبًا ما يجمعون بين صفات الأب والأم، ولكن إذا انعدم الحب بين الأبوين، فإن النتيجة الحتمية لذلك هى أن كلاً منهما لن يحب فى أولاده غير الصفات التى تمثله ويكره فيه الصفات الأخرى. وهكذا يتحول الحب الأبوى، ذلك الحب الذى نراه من أهم العوامل التى تدفع المرء إلى متعة النفس وحب الحياة، يتحول حينئذ إلى مصدر للألم والشقاء[1].

ولكن...

ما هى قيمة الحب فى حياة الإنسان؟؟

يجيب رسل على التساؤل المطروح بقوله: «أن الحب من أعظم القيم فى الحياة الإنسانية، فهو يعلو على كل رغبة فى الممارسات الجنسية، كما يعد الوسيلة الأساسية من أجل الهروب من حياة العزلة التى تصيب معظم الرجال والنساء»[2]، فالحب هو ما يسبغ على الزواج قيمته الأساسية، فهو كالفن والفكر، أحد الأشياء السامية التى تجعل حياة الإنسان جديرة بأن يحافظ عليها، فليس هناكَ زواجٌ ناجحٌ ومثمر دون عاطفة الحب[3].

ويؤكد فيلسوفنا على حقيقة مؤداها أن عاطفة الحب عبارة عن قيمة لو استهدفت الامتلاك فحسب فهى عبث لا طائل من ورائه، ذلك أن الحب الحقيقى هو المشاركة فى الميول والرغبات، وإحساس المحب بأن ذات المحبوب لا تقل فى أهميتها عن ذاته. ومما يدعو للأسف أن مجتمعنا المعاصر بما فيه من صراع وتطاحن، لم يعد تربة صالحة لمثل هذا اللون من الحب، ذلك أن التنافس والتناقض طغيا على العواطف الإنسانية حتى كادت أن تختنق وتختفى من الوجود[4].

وهنا يمكن القول أن النظرية التى قدمها برتراند رسل فى تفسير الحب كعاطفة مؤسسة على رغبة الإشباع الجنسى والاتصال بين العشاق، تختلف إلى حد بعيد مع مضمون الحب العذرى الذى سيطرت عليه تعاليم الكنيسة فى العصور الوسطى المسيحية، فنظرية رسل فى الحب تتفق

(1) المصدر السابق: ص ص-104 105 .

(2) B. Russell: Marriage and Morals, op. cit, p.64.

(3) برتراند رسل: نحو عالم أفضل، مصدر سابق، ص135.

(4) برتراند رسل: عالمنا المجنون، مصدر سابق، ص106.

إلى حد كبير مع النظرية التى قدمها العالم الإنجليزى «دارون»- في تفسير الجمال، حيث ربط «دارون» الجمال بالحب، أو الجنس بحجة أن الأصل في الجمال هو الجاذبية الجنسية، وأن المحبين هم الذين يبتدعون الجمال و يتصورنه، وأن الشعر نفسه وليد الحب والخيالات الغرامية[1]. وكذلك يطلق الحب على النزوع الجنسى بكل أشكاله ودرجاته. وذلك عندما تستعمل الكلمة بمفردها[2].

إذا كانت نظرية رسل فى الحب وعلاقته بالجنس، جاءت متفقة إلى حد بعيد مع النظرية الجمالية التى قدمها «دارون» فى تفسير الجمال وعلاقته بفكرة الحب، فلا غرو أن تأتى نظرية رسل فى الحب والجنس متفقة أيضًا مع نظرة فيلسوف معاصر - ربط بين الحب والحضارة في كتاب حمل هذا العنوان - ألا وهو «هربرت ماركيوز»، فإذا كان «ماركيوز» قد جعل الحب لصيقَ الصلةِ بمعنى التحرر الإنسانى، إلا أنه في نفس الوقت جعل الحب يتشكل و يتحدد في ضوء الغريزة الجنسية وحدها، وذلك على النقيض من نظرة بيرديائف التى يتعالى فيها الحب على الجنس و يسمو عليه، و يشكل عالماً مستقلا عنه، يعارض به عالم الغريزة الجنسية وهو عالم العبودية الإنسانية[3].

وقد جاءت نظرية رسل متفقة أيضًا مع نظرية الفيلسوف الأمريكى «جورج سانتيانا» فى تفسير الحس الجمالى وعلاقته بالجاذبية الجنسية، فقد أكد الأخير فكرته عن الوظيفة الجنسية فقال: «وكما أن القيثارة التى صنعت لكى تهتز حين تلمسها الأصابع، تكون مصدراً لبعض الموسيقى حين تهزها الريح، كذلك نجد أن طبيعة الرجل التى هى بالضرورة شديدة التأثر بالمرأة، تصبح في نفس الوقت حساسة إزاء المؤثرات الأخرى، وقادرة على الإحساس بالرقة والحنان إزاء كل موضوع، فقدرتنا على الحب هى التى تخلع على تأملنا هذا الوهج الدافئ الذى بدونه قد يعجز الجمال عن الظهور[4].

(1) زكريا إبراهيم: الفنان والإنسان- دراسات فى علم الجمال وفلسفة الفن، مكتبة غريب، القاهرة، 1973م، ص140.

(2) أندريه لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد الأول، تعريب: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، الطبعة الثانية، بيروت- باريس، 2001م، ص55.

(3) محمد مجدى الجزيرى: شهادة على عصر من بيرديائف إلى جورباتشوف، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، 2001م، ص 392.

(4) جورج سانتيانا: الإحساس بالجمال، ترجمة: محمد مصطفى بدوي، مراجعة وتصدير: زكي نجيب محمود، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، د. ت، ص84

من خلال ما سبق تحليله لماهية الحب الذى انتشر بصور مختلفة فى شتى مناحى الحياة، يرى الكاتب أن مضمون فلسفة رسل فى أخلاقيات الجنس قد لا ترتضى الحب العذرى، كحب أصيل، ففلسفة رسل تكمن فى الاتصال الجنسى بين العاشق ومعشوقته، وأن لا يقف الحد بينهما إلى الخيالات الغرامية، وأوهام الخيال الأفلاطونية، وقد رأى الفيلسوف محل الدراسة أن التجربة والخبرة الحياتية قد أثبتت فشل الحب العذرى، لما فى الحياة من متاعب وأمور معقدة بين الزوجين، بينما الحب عند رسل يعد حبًّا هادفًا، و إن كان فى بعض الأمور قد لا يصل إلى الزواج، ولكن لا يمكن منع الحبيبين من الاتصال العاطفى، وفكرة رسل هنا تقف على النقيض من فلسفة العصور الوسطى المسيحية التى مجدت الزهدَ وحياة العزوبية، حيث أباح رسل هنا الحرية العاطفية، ولا سيما الحرية الجنسية.

ومن الأدلة التى تؤكد رأى الكاتب هنا، ما ذهب إليه «آلان وود» لمشكلة «الزواج والأخلاق» فى فلسفة رسل، فقد رأى «وود» أن رسل لم يكن يدعو إلى نظرية دون أن يكون مستعدًا لأن يراها توضع موضع التنفيذ، حيث ذكر رسل لصديقة متزوجة أنه ليس هناك سبب يدعو إلى ألا يكون لها عشيق، فضلاً عن أنه كان يطبق نظرياته على نفسه. فقد تخلى رسل عن تقاليد الزواج بواحدة، لأنه لما كان قد قرر بالجدل العقلى أنه يحبذ الحرية فى الحب، فقد شعر أنه لزامًا عليه أن يضع ما يحبذه موضع التنفيذ[1].

وقد سأل شخص رسل ذات مرة إذا كان لا يرى أنه يقسو على النساء اللاتى يهوينه، واللائى يفتر اهتمام رسل بهن فيما بعد، فرد عليه رسل متسائلاً: «لماذا؟ إنهن يستطعن هن الأخريات أن يجدن رجالاً أخرين». وتعبر هذه الملاحظة عن التواضع الذى يمكن للعظماء أن يتصفوا به، ففى فترة من فترات حياته الزوجية مع «دورا» ضرب رسل مثلاً حيًا على وضع نظرياته موضع التنفيذ، إلى الحد الذى سمح لواحد من عشاق دورا أن يعيش معهما تحت سقف واحد[2].

وخلاصة القول: الحب باعتراف جميع الناس هو أمتع صور الحياة الإنسانية، فالحب الذى يحرك الشمس وغيرها من الكواكب يتسامى بالنفس إلى ضرب من الرفعة أعلى من غايات الحياة[3].

(1) آلان وود: برتراند رسل بين الشك والعاطفة، مرجع سابق، ص 173.
(2) آلان وود: برتراند رسل - سيرة حياة، مرجع سابق، ص 222.
(3) ول ديورانت: مباهج الفلسفة، الكتاب الأول، ترجمة / أحمد فؤاد الأهوانى، تقديم / إبراهيم بيومى مدكور، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1955م، ص157.

ولذلك رآه رسل قيمة مهمة من قيم الحياة الإنسانية، بل رآه أعظم قيمة فى الوجود، ومن هنا رفض فيلسوفنا الاتصال الجنسى المبنى على الرغبة فقط دون التفكير فى عاطفة الحب، وعليها يختلف الحب الأصيل فى فلسفة رسل الأخلاقية عن الحب العذرى الذى يبتغى الزهد والرهبنة فى الحياة.

وأضف إلى ما سبق: أن فيلسوفنا أراد تأسيس فلسفة للحب، ولكن هذه الفلسفة التى يريدها ليست فلسفة عشوائية، بل هى فلسفة علمية. تقوم على أسس معرفية واضحة وصريحة فى مفهوم الحب بالمعنى الكلى للكلمة، وهذه إن دل على شىء إنما يدل على أن النزعة المعرفية فى فلسفة برتراند رسل قد تسللت إلى فلسفة الأخلاق برمتها، «إذ أن الحياة الكريمة فى فلسفته ينبغى أن يقودها الحب، وتستهدى بسبل المعرفة العلمية»[1].

(1) Olaf Stapledon Source: Mr. Bertrand Russell's Ethical Beliefs, International Journal of Ethics, Vol. 37, No. 4, The University of Chicago (Jul., 1927), pp. 390-402.

تعقيب عام

قبيل الشروع فى التعقيب على فلسفة رسل الأخلاقية فى الزواج والسعادة، يرى الكاتب أنه من الواجب عدم إغفال الجوانب الطيبة من فكر أى فيلسوف، فعلى الرغم من التعقيبات التى قد تكون على رؤية رسل للجنس والدين إلا أنه حاول جاهدًا تقديم نظرية جديدة تختلف عن الفكر الدينى المسيحى فى ذلك الوقت، وإن كانت هذه النظرية قُبلت بالرفض من دعاة الأخلاق والدين.

وعلى الرغم من عدم قبول نظرية رسل فى الجنس والزواج «إلا أن أهم ما تمتاز به فلسفتة أنها غير منغلقة على نفسها فى إطار عقائدى أو فكرى محدود وثابت، بل إنها فلسفة منفتحة تتأثر بالأحداث والنظريات العلمية والفلسفية، فتأخذ منها وتزيد عليها الكثير، وبذلك تُنّمى المعرفة الفلسفية وتفتح لها أبوابًا جديدة فى الموضوع والطريقة معًا»[1].

أضف إلى ذلك «أن فلسفة رسل تمتاز بكونها أقرب إلى الموضوعية فى البحث، وهذه ميزة لم نجدها عند كثير من الفلاسفة، اللهم إلا من كان فيلسوفًا وعالمًا أو عالمًا فيلسوفًا. كما لم يلتزم رسل بالدفاع عن وجهة نظر واحدة، ولم يهاجم الفلسفات الأخرى بالجدل العقيم والحجج الكلامية، بل كان يغير وجهة نظره إذا اقتنع علميًا وتحليليًا أنها غير قادرة على تقديم نتائج مفيدة للعلم والحياة، بل إننا نجده يعدل عن فلسفة أو نظرية كاملة فى سبيل الوصول إلى نظرية فلسفية أكثر عمقًا»[2].

ولكن إذا كانت فلسفة رسل تمتاز بهذه المميزات الفكرية الراقية، فليس عجبًا أن نقول أن برتراند رسل قد جانب الصواب فى تحليله لمشكلة الزواج وأخلاقيات الجنس، فالحكم على رؤيته فى موضوع الزواج هنا يتحدد من خلال رؤيته وموقفه من الدين، فمن المعروف لدينا أن رسل يدين بمذهب «اللاأدرية» فى الدين، فهو كفيلسوف لم يتخذ موقفًا ثابتًا سواءً بالإيمان أو الإلحاد، ولكن أراد أن يكون فى منزلة وسطى بين الإيمان والإلحاد، لذا عندما تناول

(1) ياسين خليل: مقدمة فى الفلسفة المعاصرة، منشورات الجامعة الليبية، ليبيا، الطبعة الأولى، 1970م، ص69.

(2) المرجع السابق: نفس الموضع.

رسل مشكلة الزواج وأخلاقيات الجنس جاءت رؤيته بعيده كل البعد عن الدين، حيث دعا رسل هنا إلى الحرية فى كل أمور الزواج، فرأى الدين عائقًا يعوق الإنسان الناضج فى شعوره بالسعادة الجنسية.

وهذه الرؤية التى قدمها رسل تقف على النقيض من رجال الدين ودعاة الأخلاق المسيحية، وهو أن ليس هناك ثمة أخلاق فلسفية أو أخلاق عامة فى معزل عن الدين، وبصفة خاصة كانت رؤية رسل هنا رؤية تطبيقية، وليست رؤية تنظيرية، فكان يقدم رؤيته الفلسفية من خلال تجربة الحياة المعيشة، وطالما كانت رؤيته منبثقة من خلال التجربة الحياتية فلابد أن تقبع رؤيته وفلسفته الأخلاقية هنا تحت إطار الدين.

ومن الخطأ الأكبر أن يجمع رسل الرؤية المسيحية فى أخلاقيات الجنس تحت عباءة القديس بولس، وكأن كل ما جاء به الدين المسيحى قد بشر وأخبر به القديس بولس. كما يمكن القول هنا أن رسل حين حاول معالجة مشكلة الحب وقع فى خطأ فادح، وهى أن يجعل للمرأة الحق فى أن تعشق رجلاً آخر غير زوجها، طالما كان من حق الرجل أن يحب إمرأة أخرى غير زوجته، فهذه الرؤية التى ينادى بها رسل هى عبارة عن خيانة كبرى، وليس ثمة وجود دين من الأديان يقر بالخيانة فى الحياة الزوجية، إلى الحد الذى جعله يضع نظريته فى الحب موضع التنفيذ، فسمح لأحد المعجبين بزوجته أن يسكن معه تحت سقف واحد.

ومن الأخطاء التى وقعت فيها فلسفة رسل فى الجنس، أنه أراد تطبيق المعرفة العلمية فى كل ما يتعلق بأمور الجنس، فكأن الجنس علم من العلوم المهمة، أو عقيدة من العقائد الدينية التى ينبغى على كل إنسان أن يتعلمها ويكون على دراية بها، لا سيما فى ذلك الأطفال والفتيات داخل الحرم الجامعى، فنظرية رسل هذه تقف على النقيض تمامًا من رؤية أى إنسان ناضج الفكر أو حتى رجل بسيط التفكير، فرؤية رسل هنا تعد فاتحة للخيانة وعدم الإتزان.